للدكتور جورج مرتزيلوس

الأرثوذكسية واللاخلقيدونيون بحسب القديس يوحنا الدمشقي

تعريب الأرشمندريت ديمتريوس شربك

مدخل

إن التقدم الحاصل في الحوار اللاهوتي بين الكنيسة الأرثوذكسية والكنائس الأرثوذكسية الشرقية، بالرغم من أنه أثار اهتمام وإعجاب العديد من اللاهوتيين وحتى الغربيين منهم، خلق نوعاً من ردة فعل سلبية عند جهات أرثوذكسية معيّنة أدّت ليس فقط إلى عدم فهم واضح، بل وإلى تفسير خاطئ لكلام القديس يوحنا الدمشقي في مقالته "عن الهرطقات" بشأن الإيمان العقائدي للاخلقيدونيين.

بالفعل إن القديس يوحنا الدمشقي، العظيم والدقيق جداً في تعابيره اللاهوتية، في عمله المذكور أعلاه، مريداً أن يحلّل ويفنّد الهرطقات المختلفة يذكر، ضمن من يذكر، اللاخلقيدونيين واصفاً بطريقة واضحة وغير قابلة للشك هويتهم العقائدية. وبالرغم من أن قديسنا يؤكد طابعهم الهرطوقي الكامن في انفصالهم عن الكنيسة الأرثوذكسية نتيجة رفضهم تحديد إيمان مجمع خلقيدونية، وبشكل عام كل مقرّرات هذا المجمع المعروف بالمجمع المسكوني الرابع، فإنه لا يتردد بالاعتراف بأرثوذكسيتهم بكل ما تبقى من إيمانهم قائلا ما يلي: " انشقّ المصريون، المنشقون والمونوفيزيتيون (أصحاب بدعة الطبيعة الواحدة)، عن الكنيسة الأرثوذكسية بسبب قرارات مجمع خلقيدونية. سُمّوا مصريين لأن المصريين هم أول من انشق عن الكنيسة الجامعة في عهد الملكَين مركيانوس و أوالنتيانيانوس بالرغم من أنهم أرثوذكس في كل الأمور الأخرى. رفض هؤلاء المجمع ، بناء على تحريض ديوسقورس رئيس أساقفة الإسكندرية الذي حرمه مجمع خلقيدونية لموافقته على تعاليم أوطيخا، وأقاموا عدداً كبيراً من الدعاوى ضده مثبتين سوء نيتهم وأنانيتهم". فلنرَ الآن بالتفصيل ما هي الهوية العقائدية للاخلقيدونيين التي يتكلم عنها القديس يوحنا الدمشقي.

1- الهوية العقائدية للاخلقيدونيين

إن عدداً محدداً من اللاهوتيين الأرثوذكس يعتقد أن الهوية العقائدية للاخلقيدونيين بحسب القديس يوحنا الدمشقي تتحدد في إيمانهم الخريستولوجي المونوفيزيتي، الأمر الذي، كما يؤكدون، يُفهم بوضوح من وصفه لهم في مقالته "عن الهراطقة" بالمونوفيزيتيين. ولكن يجب أن نشدد، ومنذ البداية، أن

اعتقاد هؤلاء اللاهوتيين هو مغلوط بالكلية لأن صفة "مونوفيزيتيين" في نص المقالة لا تُطلق لتحديد الهوية العقائدية لديوسقورس وأتباعه، ولكن لأنها مجرد لقب من بين الألقاب المختلفة التي أطلقت على اللاخلقيدونيين والتي كانت مستخدمة في زمن الدمشقي. فكما يطلق الدمشقي على اللاخلقيدونيين ألقابا مثل "المصريين" و "المنشقين" لأن "المصريين هم أول من انشق عن الكنيسة الجامعة في عهد الملكَين مركيانوس و أوالنتيانيانوس"، هكذا يستخدم لقب "المونوفيزيتين" لوصفهم انطلاقا من رفضهم لتحديد إيمان خلقيدونية وقبولهم فقط لعبارة القديس كيرلس الإسكندري "طبيعة واحدة للكلمة الإلهي متأنسة (متجسدة)"، وليس بسبب إيمانهم بالخريستولوجية المونوفيزيتية التي عبّر عنها أوطيخا، والتي، كما و أوطيخا نفسه، أدينتا من قبلهم منذ بداية الانقسام الخلقيدوني.

كما أنه من الضروري أن نعرف أن القديس يوحنا الدمشقي في مقالته "عن الهرطقات"، التي يشرح فيها الهرطقات المختلفة التي كانت موجودة في عصره، يذكر أولاً الأسماء التي كانت تعرف بها هذه الهرطقات ثم يعرض بعد ذلك تعاليمها وإيمانها. هكذا ندرك أن الهوية العقائدية للاخلقيدونيين أتباع ديوسقورس لا يشار إليها – في المقالة المذكورة أعلاه – بـ "مونوفيزيتية"، ولكن يشار إليها بذلك الذي يشدّد عليه الدمشقي في مقالته نفسها بقوله: "انفصلوا عن الكنيسة الأرثوذكسية بسبب قرارات مجمع خلقيدونية... لكنهم أرثوذكس في كل الأمور الأخرى"، أي بالعلّة المتمثّلة برفضهم لتحديد إيمان مجمع خلقيدونية وانفصالهم عن الكنيسة الأرثوذكسية التي تقول بطبيعتين بالرغم من كونهم أرثوذكس في كل الأمور الأخرى،. جدير بالملاحظة هنا أن الدمشقي بكلامه هذا يفصل ديوسقورس وأتباعه عن اللاخلقيدونيين أتباع أوطيخا والذين هم بالحقيقة مونوفيزتيين.

أيضا يجب أن نفهم أن الدمشقي في وصفه لديوسقورس بأنه "مدافع عن تعاليم أوطيخا" لا يعني أنه كان لديوسقورس نفس الإيمان العقائدي الذي كان لأوطيخا وإلا لكان عليه أن يضعه ضمن هرطقة الأوطيخيين لا أن يميزه عنها كما يفعل في مقالته المذكورة سابقاً. ببساطة، فإن اللقب السابق يصف فقط عمل ديوسقورس في المجمع "اللصوصي" سنة 449 حيث، وبسبب دفاعه عن أوطيخا، أصدر قراراً بتبرئته بالرغم من إدانته كرئيس لهرطقة المونوفيزتيين في مجمع 448. لكن الدمشقي يعلم علم اليقين أن ديوسقورس وأتباعه قد أدانوا أوطيخا وتعاليمه فيما بعد ولهذا فهو يعتبرهم، في مكان آخر من مقالته، أرثوذكسيين في كل ما تبقى من إيمانهم، أي فيما يتعلق بتعاليمهم، بغض النظر عن انفصالهم عن الكنيسة الأرثوذكسية بسبب رفضهم قبول مجمع خلقيدونية. هذا هو التحليل الصحيح للهوية العقائدية للاخلقيدونيين بحسب رأي الدمشقي. ويعبر عن الرأي نفسه اثنَين من كبار اللاهوتيين اليونانيين المعروفين عالمياً وهما المرحومان الأستاذ يوحنا كارميرس والأب يوحنا رومانيذس.

بالتحديد، فإن الأستاذ كارميرس، في مداخلة قدّمها في اللقاء اللاهوتي المشترك بين الأرثوذكس واللاخلقيدونيين في Aarhus (الدانمارك) سنة 1964، شدّد على أن "اللاهوتي العظيم القديس يوحنا

الدمشقي عبّر وببراعة عن الموقف الإيجابي للكنيسة الأرثوذكسية تجاه الكنائس اللاخلقيدونية الشرقية عندما قال أنه يعتبرهم "منشقين عن الكنيسة الأرثوذكسية بسبب قرارات مجمع خلقيدونية... وأما في كل ما تبقى فهم أرثوذكس"، وبسبب هذا التحديد فإنه يجب تطوير مساعٍ جدّية من قبل الطرفَين لإعادة الوحدة الكنسية بينهما". في المناقشة التي تمت بعد المداخلة صرح الأستاذ كارميرس بأنه وبعد دراسة مستفيضة ليس فقط لنصوص آباء أرثوذكس ولكن لنصوص معلمي اللاخلقيدونيين "وصلتُ إلى نتيجة تؤكد أنه لا يوجد خلاف حقيقي بين الأرثوذكس واللاخلقيدونيين فيما يتعلق بجوهر الإيمان الخريستولوجي طالما أننا جميعاً نقبل تعاليم القديس كيرلس الإسكندري. يوجد خلاف فقط فيما يختص بالمصطلحات وطرق التعبير عن العقائد". موقف الأب يوحنا رومانيذس مشابه أيضا للموقف السابق إذ يعتبر اللاخلقيدونيين اتباع ديوسقورس أرثوذكساً فيما يتعلق بإيمانهم الخريستولوجي ولهذا يذكر في مقالاته مصطلحات مثل "الخلقيدونيين واللاخلقيدونيين الأرثوذكسيين" مشدداً على أن الخلاف اللاهوتي الأساسي بين الطرفَين هو في قبول المجمع المسكوني الرابع المنعقد في خلقيدونية.

لا بد هنا من القول أن القديس يوحنا الدمشقي يعطي الانطباع، في مقاله "التحديد الدقيق للإيمان الأرثوذكسي" ونتيجة مهاجمته الشديدة لديوسقورس وسفيروس، بأنه يعتبرهما هراطقة فيما يتعلق بإيمانهم الخريستولوجي عندما يكتب "... ليس باختلاط أو تشوش أو تحوّل كما يقول ديوسقورس وسفيروس وأتباعهما".

من البداية يجب أن نشدد على أن الصفات السابقة لا تتعلّق بإيمان اللاخلقيدونيين الخريستولوجي والذي لا يختلف عن الإيمان الخريستولوجي الذي علّمه القديس كيرلس الاسكندري، ولكن بأن ديوسقورس وسفيروس رفضوا قبول المجمع المسكوني الرابع، صائرين نتيجة موقفهم هذا قادة الانفصال اللاخلقيدوني. وهذا بالتحديد ما يعتبره الآباء السبب الأساسي لهرطقتهم وليس خريستولوجيتهم بحد ذاتها. لا يهمّ الآباء البتّة فيما إذا كانت خريستولوجيتهم بحد ذاتها أرثوذكسية أم هرطوقية وذلك منذ اللحظة التي رفضوا فيها المجمع المسكوني الرابع على أنه نسطوري وشقّوا بموقفهم هذا الكنيسة–الجسد الأسراري للمسيح. وهذا لأن مقياس الأرثوذكسية بالنسبة لآباء كنيستنا بشكل عام ليس هو مجرد مقياس اصطلاحي ولكنه إكلزيولوجي يتّفق مع قبول المجامع المسكونية. هكذا تجدر الملاحظة أنه بينما هو معروف أن ثيوذوريتوس القورشي وإيفاس الرهاوي قد أهانا كيرلس في كتاباتهما ودافعوا عن شخص وتعاليم نسطوريوس، الأمر الذي كان ممكن أن ينعتوا بسببه بالهراطقة، إلا أنه وبسبب قبولهم لقرارات الكنيسة التي تم التوصل إليها في المجمع المسكوني الرابع وإدانتهم لنسطوريوس اعتبرهما الآباء أرثوذكسيين. لهذا فإن المجمع المسكوني الخامس فيما بعد والذي اهتم بموضوع تعاليمهما الخريستولوجية أدان كتاباتهما النسطورية كما وكتاباتهما المعادية لكيرلس (إدانة الفصول الثلاثة).

هذا التصرف يشير بوضوح إلى أن مقياس الأرثوذكسية بالنسبة للكنيسة ليس هو إذا كان أحد يعرض بشكل صحيح مضمون تعاليمه العقائدية بقدر ما هو قبول هذا الشخص لقرارات الكنيسة. هكذا وضمن هذا التحديد فإن رفض المجمع المسكوني الرابع من قبل قادة اللاخلقيدونيين وأتباعهم يعتبر كافياً بالنسبة للآباء لينعتوهم بالهرطوقية.

من جهة أخرى، من غير المسموح علمياً تفسير الصفات التي أطلقت على اللاخلقيدونيين من قبل آباء الكنيسة بمعزل عن الظروف التاريخية اللاهوتية التي كانت موجودة آنذاك والتي كان لها تأثير كبير على مجمل كتابات الآباء.

وكما هو معروف فإن ديوسقورس الإسكندري والذي كان السبب الرئيسي للانقسام اللاخلقيدوني، لم يدان من المجمع المسكوني الرابع لأسباب عقائدية ولكن فقط لأسباب قانونية. هذا لا يمكن استنتاجه فقط من الجلسة الثالثة للمجمع والتي أُدين فيها ديوسقورس، ولكن أيضا من تصريح أناتوليوس بطريرك القسطنطينية في الجلسة الخامسة للمجمع إذ قال: "لم يدن ديوسقورس بسبب الإيمان، ولكن بسبب حرمه للبابا ليون ولأنه دعي ثلاث مرات ورفض الحضور، لهذا حرم"، وذلك في معرض الحديث الذي دار حول عبارة "من طبيعتَين" والتي اعتبرها مندوبو الإمبراطور أنها مونوفيزيتية وربطوها بشخص ديوسقورس ، مدفوعين إلى ذلك من قبل ممثلي البابا.

نحن ندرك بالطبع أنه لو كان ديوسقورس قد أدين لأسباب عقائدية فإن أناتوليوس لم يكن ليعرض حجة كهذه معارضاً بهذا مندوبي الإمبراطور، لأن هذه الحجة لن يكون لها أية قوة برهانية لاثبات أرثوذكسية عبارة "من طبيعتَين" والتي استخدمها ديوسقورس واحتواها التحديد العقائدي الأولي لمجمع خلقيدونية. كما أكد ذلك الأب رومانيذس بتعليقه على مداخلة الأستاذ كارميرس في آرهوس سنة 1964 بقوله: "إن ديوسقورس أعتبر أرثوذكسياً بالكلية بالنسبة لإيمانه من قبل أغلبية آباء المجمع الرابع وفي مقدمتهم أناتوليوس بطريرك القسطنطينية".

يجب أن نشدد أيضا على أنه لا يوجد حتى ولا جملة واحدة من كتابات ديوسقورس أو سفيروس يبدو فيها أنهما يقبلان انفصال الطبيعتَين أو تخفيضهما، كما يتهمهما الدمشقي. بل على العكس هناك جمل كثيرة يرفض فيها ديوسقورس كما وسفيروس الانقسام والاختلاط الطبيعتَين وتقليصهما. هذا ما صرح به تماماً ديوسقورس أمام المجمع المسكوني الرابع بقوله: "لا نقول باختلاط أو فصل أو تحوّل. فكل من يقول باختلاط أو تحوّل أو انقسام فليكن محروماً". على كل، فإن سفيروس أدان علناً وبشكل متكرّر اختلاط الطبيعتَين وتحولهما مشدداً على عدم اختلاط وعدم تحوّل الطبيعتَين في المسيح بعد اتحادهما.

بالنتيجة، ليس مسموح علمياً أن نعتمد في بحوثنا على الدمشقي حصراً لنعرف تعاليم اللاخلقيدونيين وخاصة عندما تتوفّر لدينا نصوصهم نفسها يعبّرون فيها عما يؤمنون به وعما لا يؤمنون.

بكلام آخر، عندما نريد تدقيق كتابات كتّاب معينين، أرثوذكسيين أم لا، ليس من منطق البحث العلمي أن نبني آراءنا على أساس آراء شخص ثالث وليس على النصوص الأصلية للكتّاب ذواتهم. اعتماد طريقة كهذه لا يمكن اعتبارها بأية حال طريقة علمية. علينا أن نستند ههنا، أولاً وبشكل أساسي، على النصوص سفيروس وديوسقورس نفسها لنتوصل إلى نتائج علمية واقعية عن تعاليمهما، وعندما نرى أن هناك رأياً ثالثاً يختلف عن بحثنا، كما هي الحال هنا مع القديس يوحنا الدمشقي أو غيره من الآباء، فإنه يجب علينا البحث عن أسباب هذه الخلافات. السؤال المطروح بالنسبة لكل باحث يدرس خريستولوجية ديوسقورس أو سفيروس من الوجهة العقائدية على ضوء التقليد الأرثوذكسي هو الآتي: لماذا، بينما يرفض ديوسقورس وسفيروس علناً الانقسام والتخفيض في طبيعتَي المسيح، يدينهما الدمشقي لأنهما يقبلان الانقسام والتخفيض؟ إن الإجابة على هذا السؤال واحدة ووحيدة: لا يهتم الدمشقي في هذه الحالة بفحص وتحليل تصريحات وكتابات ديوسقورس وسفيروس علمياً ليستخلص منها تعاليمهما الخريستولوجية كما هو نهج العلوم اللاهوتية اليوم. لهذا فإن مقياس تقدير ديوسقورس وسفيروس وأتباعهما من اللاخلقيدونيين هو أنهم لا يقبلون المجمع المسكوني الرابع وتحديد إيمانه، الذي يتحدّث عن "عدم اختلاط" و"عدم تحول" بين طبيعتَي المسيح بعد الاتحاد. هذا هو بالضبط ما أعطى الحق للدمشقي لاتهامهم بأنهم يرفضون الوحدة في طبيعتَي المسيح بدون اختلاط وتحوّل، وبأنهم بذلك يقبلون المزج والتخفيض بينهما حتى ولو قالوا أنهم يرفضون "الاختلاط" و"التحول". يتعلق الأمر إذن باتهام يوجّه لهم دائماً بالاستناد إلى ما قلناه سابقاً وليس بالاستناد إلى دراسة علمية قام بها الدمشقي لنصوص وكتابات كل من ديوسقورس وسفيروس. لم يكن يهمه هذا النوع من البحوث لأن الهدف من كتاباته كان دفاعياً ورعائياً. أراد حماية القطيع الأرثوذكسي من خطر التأثر بديوسقورس وسفيروس وبالتالي رفض قرارات المجمع المسكوني الرابع. لم يكن همّه بشكل خاص طبيعة خريستولوجيتهم ما إذا كانت أرثوذكسية أم لا. لهذا فالخلقيدونيون منشقّون طالما أنهم يرفضون القرارات المسكونية للكنيسة الجامعة المعبّر عنها في المجمع الرابع.

يجب أن ندرك دائما أن الآباء في كنيستنا الأرثوذكسية هم بالدرجة الأولى رعاة، فهم كرعاة لا يهتمون بدرجة كبيرة بالتحليل العلمي بقدر ما يهتمون بحماية رعيّتهم من خطر الهراطقة. لهذا السبب فهم لا يهتمون بالدقة العلمية الكاملة في كثير من الأحيان في حربهم ضد الهرطقات. ما يهمّهم فعلاً وبالدرجة الأولى هو المواجهة الرعائية للهرطقات وليس المقاربة العلمية الدقيقة لها خاصة عندما لا تخدم هذه المقاربة أهدافهم الرعائية. هذا الأمر يشكل أساساً هاماً لكل من يريد أن يقرأ ويفهم كتابات الآباء اللاهوتيين خاصة إن أراد الوصول إلى نتائج صحيحة. ومن المفيد أن نذكر هنا أن القديس غريغوريوس بالاماس يؤكد هذه القاعدة الأساسية مستنداً إلى رأي القديس باسيليوس الكبير فيقول: "تضارب الآراء في شؤون التقوى شيء، وتضاربها في شؤون اعتراف الإيمان أمر أخر بالكلّية. ففي الأولى لا داعي

للحرفية التعبيرية، كما يقول القديس باسيليوس الكبير، بينما تصان وتحفظ الحرفية التعبيرية في أمور اعتراف الإيمان".

إنه لَخطأ منهجيّ، ومن باب الطلب العلمي للحقيقة، أن يؤخذ بالحرف ما قاله الآباء ضد الهراطقة كما لو كان الأمر يتعلق بدراسات حديثة علمية، في الوقت الذي يوضح فيه الآباء أنفسهم أنه ليس من الضروري أن يكون هناك دقة كبيرة وحرفية في الكلمات في كتاباتهم ضد الهراطقة. الدقة "تُحفظ وتُطلب" فقط في اعتراف الإيمان أي عند صياغة العقائد الأرثوذكسية. هذا لا يعني بالطبع أن الآباء تجنّبوا أن يصيغوا مرات كثيرة صياغات قريبة جداً للمقاربات العلمية الحديثة والمعاصرة، إن لم تكن متطابقة، كما هي الحال في مقالة الدمشقي "عن الهراطقة" المذكورة أعلاه. ولكن عدم اعتبار الآباء مجرد بحّاثة لاهوتيين معاصرين هدفهم فقط إظهار الحقيقة العلمية. لم يهتموا بأمر كهذا خاصة عندما لا تخدم، أو بالأحرى عندما تتهدّد، وحدة الكنيسة.

2- أرثوذكسية المصطلحات وأرثوذكسية الكنيسة

فليُسمحْ لنا الآن بالإجابة على عدة أسئلة لها علاقة مباشرة بتسمية اللاخلقيدونيين أتباع ديوسقورس بـ "أرثوذكسيين"، طالما أن أغلب اللاهوتيين الأرثوذكسيين يعارضون هذه التسمية. هل من القانوني من وجهة النظر الأرثوذكسية تسمية ديوسقورس واتباعه بالأرثوذكسيين؟ هل يتساوون معنا في هذه الحالة نحن أعضاء الكنيسة الأرثوذكسية ولا تتعارض هذه التسمية مع كتابات الآباء الذين يعتبرونهم منشقين عن الكنيسة الأرثوذكسية؟

على الرغم من أنه قد أجيب على هذه الأسئلة فيما سبق، ولو بشكل غير مباشر، إلا أننا الآن سنجيب عليها بوضوح وتفصيل أكبر. يجب في البداية أن نفهم معنى الأرثوذكسية الحقيقية عند آباء الكنيسة، فهو لا يتضمّن معنى اصطلاحياً ولكن إكلزيولوجياً. لهذا السبب بالتحديد لا يتردّد آباء الكنيسة في اعتبار بعض الآباء السابقين لهم قديسين لا بل ومعلمين كبار، على الرغم من أن لديهم بعض وجهات النظر العقائدية الخاطئة، شرط بقائهم حتى نهاية حياتهم في شركة مع الكنيسة. وكمثال على ذلك القديس غريغوريوس النيصصي والمغبوط أغسطين. كما وأعطى الآباء صفة "أرثوذكسي" من وجهة نظر اصطلاحية لبعض الهراطقة الذين صانوا أرثوذكسيتهم تجاه جوهر العقيدة ولكنهم انشقّوا عن الكنيسة واعتُبروا منشقّين لأنهم قطعوا شركتهم مع الكنيسة. وكمثال واضح على ذلك هو ما كتبه قديسنا العظيم يوحنا الدمشقي الذي يطلق صفة "أرثوذكس" ليس فقط على ديوسقورس وأتباعه بل وعلى غيرهم من المنشقين أيضاً.

وإليكم كيف يصف الدمشقي فئتَين أخريَين من المنشقين عن الكنيسة وهم "المبتهلون" و "القاطعين ذواتهم عن الشركة مع الكنيسة" (Αυτοπροσκόπτες) إذ يقول عن الفئة الأولى: "تتكوّن من

النساك وهم أرثوذكس في كل شيء ما عدا أنهم يجتمعون مع نساء نساك مثلهم ويقدمون تسابيح لله برقص وآلات"، وأما عن الفئة الثانية فيقول: "هم أرثوذكس في كل الأمور ولكن وبسهولة ولسبب بسيط فصلوا أنفسهم عن الكنيسة الجامعة وعن الشركة معها".

إذا كان معنى "الأرثوذكسية" كامن فقط في المصطلحات اللاهوتية، لا أكثر ولا أقل، فإنه من غير الممكن بالنسبة للقديس يوحنا الدمشقي، وهو المعروف بدقة تعابيره العقائدية، أن يصف هذه المجموعات بالأرثوذكسية لا بل ويشدّد "أرثوذكس بحسب كل شيء"، وذلك لأن هذه الصفة كانت ستعني مساواتهم مع أعضاء الكنيسة الأرثوذكسية نفسها الأمر الذي سيؤدي إلى ظهور تناقض كبير في كتاباته وكتابات غيره من الآباء الكنسيين الذين يعتبرونهم منشقين. بالنتيجة فإن صفة الأرثوذكسية التي يطلقها الدمشقي على المنشقين المذكورين أعلاه تتعلق بالتحديد وفقط في جوهر العقيدة ولها بالتالي طابع اصطلاحي مجرد. لكن الدمشقي الذي يستخدم هذه الأرثوذكسية الاصطلاحية يعتبرها غير كافية ولهذا فهو يدرجهم في عداد المنشقين في مقالته "عن الهراطقة". وبحسب رأينا فإن الوصف الخاص الذي يطلقه الدمشقي على "القاطعين ذواتهم عن الشركة مع الكنيسة" (Αυτοπροσκόπτες) يعطينا فكرة واضحة بأي شيء تختلف الأرثوذكسية الاصطلاحية عن الأرثوذكسية الحقيقية، والتي ليست هي مجرد مصطلحات بل هي في جوهرها شركة مع الكنيسة. إنه مدهش حقا أنه بالرغم من تسميتهم "أرثوذكساً بحسب كل شيء"، إلا أنه يدرجهم في عداد الهراطقة لا لسبب آخر سوى أنهم انشقوا عن شركة الكنيسة. إذن، الأرثوذكسية الاصطلاحية شيء – ويمكن أن تطلق حتى على المنشقين الذي حافظوا على التعاليم والعقائد الصحيحة ؛ والأرثوذكسية الحقيقية والكاملة شيء آخر بالكلية – والتي هي أرثوذكسية بحسب جوهر العقيدة وهي شركة مع الكنيسة وتُطلق فقط على الأرثوذكس المنتمين إلى نفس الكنيسة. هكذا ففي حال عدم وجود البعد الكنسي للأرثوذكسية فإن الأرثوذكسية الاصطلاحية وحدها لا تكفي حتى يعتبر أحد ما أرثوذكسياً. الشركة مع الكنيسة هي التي تعطي للأرثوذكسية الاصطلاحية كمالها.

بالتالي صار واضحاً الآن لماذا بإمكان الآباء إطلاق صفة الأرثوذكسية حتى على المنشقين بعد التأكد من حفظهم الإيمان والعقيدة، فلا يجب أن لا يتعثر أحد من هذه التسمية ظاناً أنه يشكك بكتابات الآباء وبضمير الكنيسة الحيّ عندما يتحدّث عن أرثوذكسية ديوسقورس وأتباعه . فقط من لا يميز بين الأرثوذكسية الاصطلاحية وأرثوذكسية الشراكة يمكن أن يقع بلغط كهذا وبالتالي يتوصل إلى نتائج مغلوطة. يجب أن يكون واضحاً لدى الجميع أن موضوع الأرثوذكسية الاصطلاحية لا يهمّ الكنيسة وإنما العلم فقط. بالنسبة للكنيسة الأمر محلول وببساطة: ديوسقورس وأتباعه اللاخلقيدونيين منشقّون لأنهم رفضوا قبول مقرّرات الكنيسة الجامعة في المجمع المسكوني الرابع المنعقد في خلقيدونية. يأتي الآن دور العلوم اللاهوتية وخاصة العلوم اللاهوتية التاريخية والعقائدية لتتحقّق من مدى الأرثوذكسية

الاصطلاحية لهؤلاء المنشقين باعتماد دراسة نصوصهم وكتاباتهم المختلفة. ومن دراسات وبحوث كهذه يمكنها الإجابة على الأسئلة المختلفة التي طالما راودت أذهان الآباء، ومنها على سبيل المثال:

1- هل يقبل ديوسقورس وأتباعه مساواة الطبيعة البشرية في المسيح لطبيعتنا البشرية أم لا؟

2- هل يقبل ديوسقورس وأتباعه التمييز بين الطبيعتَين في شخص المسيح المتجسد بعد الاتحاد، على أساس الأعمال وذلك بالاعتماد على تبادل الصفات، فينسبون الأعمال الإلهية للطبيعة الإلهية والأعمال البشرية للطبيعة البشرية في المسيح؟

3- هل يفهم ديوسقورس وأتباعه تعابير مثل "من طبيعتَين" و"طبيعة واحدة بعد الاتحاد" بحسب تفسير كيرلس الاسكندري أم بحسب تفسير أوطيخا؟

4- هل ينجم رفضهم عبارة "بطبيعتَين" عن إيمانهم بخريستولوجية أوطيخا المونوفيزيتية أم بسبب خوفهم من الذيوفيزيتية النسطورية؟

بالطبع يحقّ للدراسات والبحوث التاريخية والعقائدية اللاهوتية وأطروحات الدكتوراه الإجابة، فهذا دور البحث والتنقيب لإعطاء النتائج العلمية الدقيقة، وهي لا تجرح على الإطلاق ضمير الكنيسة الحيّ وآباءها القديسين ولا تمس الإيمان الحقيقي المعطى لهم مهما كانت النتائج.

الخلاصة

بعد كل ما قلناه بات واضحاً، على ما أعتقد، أن القديس يوحنا الدمشقي بالرغم من اعتباره اللاخلقيدونيين منشقين عن الكنيسة بسبب رفضهم للقرارات المجمع المسكوني الرابع، إلا أنه لا يتردّد في الاعتراف بأرثوذكسيتهم الاصطلاحية واصفاً إياهم بالأرثوذكس بكل ما تبقى من إيمانهم.

هذه النتيجة لها أهمية كبرى ويمكن أن يكون لها دور حاسم في عملية دفع الحوار اللاهوتي بين الأرثوذكس واللاخلقيدونيين الذين يُعرفون، منذ أن انطلق الحوار بين الطرفَين، بالكنائس الشرقية الأرثوذكسية. وبكلام آخر يجب علينا نحن الأرثوذكس في حوارنا معهم ألا نطلب منهم شيئاً آخر سوى الاعتراف بالمجمع المسكوني الرابع وبالتالي ببقية المجامع المسكونية اللاحقة كالمجامع المقدسة والمسكونية. هكذا، كما برفضهم المجمع المسكوني الرابع انشقوا عن الكنيسة، كذلك باعترافهم به يعودون إلى أحضان الكنيسة الأرثوذكسية وتُلغى بذلك كل الأسباب التي أدت إلى ابتعادهم وانفصالهم. وعلى هذا الأساس، فإن كل اللقاءات والحوارات الثنائية بيننا يجب أن تصبّ في محاولة تذليل العقبات أمام التوصل إلى موقف واحد من المجمع المسكوني الرابع، ليأتي الموقف كل الأرثوذكس واحداً وجامعاً.